# طيف الحبيب

بقلم: نيرة الشريف

obeikan.com

يمكنني أن أبدأ بقلب الموضوع مباشرة دون مقدمات، لن أرهق نفسي بالتفكير حول البدء من الرأس أو من القدمين حتى أصل إلى القلب، هل رأيت من قبل هذا الطيف؟ هل شعرت به قريبًا؟ عن طيف الحبيب أتحدث، حبيب رب العالمين والرحمة المهداة للعالمين، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أُصَدّق الرؤى، تشغل حيزًا كبيرًا من اهتماماتي، أظل أتذكر الرؤى المنامية لأيام، وأبحث عن تفسيرها إلى أن يفسرها الواقع بأحداثه لي، أستطيع أن أقص لك رؤى منامية رأيتها عندما كنت في السابعة من عمري، وحفرتْ نفسها في ذاكرتي ووجداني دون أن تستطيع قوة أن تمحوها، وهناك رؤى متكررة على مدى سنوات طويلة، لن أُجهَد إذا أردتُ تذكرها، وكانت الرؤى هي مدخله إلى قلبي، لا يتجسد فيها تجسّدًا كاملاً، وإن كان طيفه لا يغادرها أبدًا على مر السنون الطويلة، منذ الطفولة، كنت دائمًا ما أرى أنني في الطريق إليه، إلى مسجده الشريف المطهر، وروضته الحبيبة، إما على متن سفينة يتقاذفني الموج، أو في طائرة والرياح خارجها غير مستقرة تعصف بها، مرات أجد أسمه مكتوبًا على شاشة هاتف نقال بدائي -في وقت كانت الهواتف النقالة فيه مستحدثة-وأنه قد أرسل لي رسالة لا أستطيع فتحها، طوال سنوات طفولتي ومراهقتي كانت تتكرر هذه الرؤى.. نفس دقات القلب المتسارعة لأنني في الطريق إليه تائهة، نفس الخوف في كل مرة من عدم التمكن للوصول، ونفس اللهفة والأمل لعل الله يكتب لقاءً.

وذات مرة رأيت أنني أمام المقام النبوي مباشرة، لا يفصلني عنه سوى باب زجاجي، يفتح أحدهم لي الباب ويدعوني للدخول، لكنني أقف مكاني مرتجفة ولا أستطيع التقدم، مررت بعد هذه الرؤية بتجربة ادَّعى القائم عليها أنها دينية -ولم تكن كذلك بالطبع- كانت تجربة قاسية وأليمة، لم تَرْوِ الروح، وتركَت القلب محملاً بكثير من الجروح والندبات، كنت أتخيل عند بدئي في تلك التجربة أن دخولي فيها تفسير لرؤية الوصول أخيرًا بعد سنوات من رؤى «المعافرة» في الطريق، والحقيقة أن الرؤية لم تُفسر إلا بتلك اليد الحانية التي امتدت لتُخرجني من تلك التجربة، التي تحولت إلى أزمة عميقة، والتي كنت قد ورطت نفسي فيها حتى الغرق، وعلى باب الخروج وجدت الطيف واقفًا من جديد.

حاولت على مدار سنوات أن أختبر دروبًا من المتعة، لم تكن تروق لي المتع التي تمنحك نفسها لبعض الوقت ثم تنصرف عنك، وظلت المتعة التي تلائمني تمامًا، وتروي قلبي ولا تزول، هي متعة الصلاة عليه، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أختبر الصيغ المختلفة للصلاة عليه، أتأمل ما تفعله بعد حين من تكرارها، حين تفصلك عن كل ما حولك، تبعد كل الأصوات تدريجيًّا عن أذنك حتى وإن كنت جالسًا في فرح شعبي! تنخرط فيها تمامًا، وتتذوق اللذة، لذة تمنحك نفسها بلا منتهي ولا نهاية، تشعر أن قلبك يرتوي، روحك تُحلّق متسامية عن تلك الحياة التي تؤلمك قوانينها، كل ذرة بجسدك تصل إلى النشوة حد الارتجاف، عقلك ساكن يستقبل فقط أفكارًا ليس لك عليها سلطان ولا هي من نطاق تفكيرك ولا حيز إدراكك أنت من الأصل! تذوب ذرات جسدك حين تحاول استدعاء الطيف الآن وسط كل هذه المتعة والأنس به، تذوق الآن لذة القرب التي تجزم بقلبك أنك لن تندم أبدًا، إذا أمضيت حياتك كلها لا تفعل شيئًا سواها، «ومن ذاق عرف».

elbeikan.com